

القضية الفلسطينية... وجهة نظر قومية

محمد ناصر

المراقب لطبيعة التعاطي الأنّي للقوى الوطنية العربية مع القضية الفلسطينية يدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن الجميع بات يدور في أفق غير واضح أو محدد العوالم ، فالأحداث الإقليمية والدولية الراهنة المرتبطة بقضية فلسطين ، ساهمت بدرجة كبيرة في تكريس واقع المنعطف التاريخي الذي هوت فيه ومنذ عقود طويلة القوى العربية في تعاملها مع القضية بداية من غياب للرؤية المنهجية لطبيعة الصراع العربي الصهيوني مروراً بغياب الإدراك للغايات المراد إنجازها عربياً من هذا الصراع ووصولاً للتعرف على آليات التعامل من الصراع إستراتيجياً وتكتيكياً .

فعلى مدار سنوات طويلة استنزفت القوى العربية الفاعلة طاقاتها في الجدل الداخلي حول ماهية القضية كلا وفق قناعاته الفكرية فالبعض يعتبرها قضية صراع ديني بين المسلمين بصفتهم ، واليهود بصفتهم الدينية ،،، والبعض الآخر فقد زخم مراحل تاريخية سابقة في الحديث حول الطبيعة الطبقية للصراع من منطلقات أممية ، والآخرين ركنوا لكون القضية باتت قضية دولية تحكمها موثيق وأعراف قانونية دولية تجعلها صراع بين دول إقليمية على مساحات من أراضي متنازع عليها ولكن بما لا يمس وجود أي من هذه الدول ذاته .

ومهما يكن من أمر فإن تحولات القضية بداية من كامب ديفيد واتفاق السلام المصري الإسرائيلي وحتى أوصلوا وخارطة الطريق ساهمت في استدراج الجميع صوب حديث يومي عن أحداث ومتغيرات سياسية بعيدة تماماً عن بديهيات القضية ،، الا أن نجاح حركة حماس في الانتخابات البرلمانية الفلسطينية وتصريحات الرئيس الإيراني نجاد حول مشروعية وجود الدولة الصهيونية ،،سمح لنا بإعادة تداول الحديث حول القضية ومنطلقاتها ، عبر حزمة من التساؤلات ومحاولة الإجابة عليها ، على النحو التالي :

السؤال الأول : هل نحن بصدد صراع ديني ؟

الرؤية القومية والتي أكد عليها دائماً المفكر القومي العربي الكبير د/ عصمت سيف الدولة تنطلق من قناعة أن الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين ليس قائماً بين الشعب العربي وبين "اليهود" لأنهم يهود. فهذا خطأ جسيم في فهم المشكلة. فالعروبة قومية واليهودية دين، ولكل منهما دلالة مختلفة على مضامين مختلفة.

القومية العربية علاقة انتماء إلى مجتمع قومي (امة) والدين اليهودي علاقة إيمان بمقولات ميتا فيزيقية. وكما يكون العربي يهودياً ويبقى عربياً يكون اليهودي منتماً إلى أي واحد من المجتمعات التي تملأ الأرض بدون أن يكون ثمة تناقض بين انتمائه الاجتماعي وإيمانه الديني.

إذا ليس ثمة شئ أبعد عن حقيقة مشكلة فلسطين وأكثر تشويهاً لها من القول بأنها مشكلة صراع ديني يحلها قبول التعايش بين الأديان على أرض فلسطين. فيوم أن اغتصب الصليبيون المسيحيون أرض فلسطين قاتل العرب، مسلمين ومسيحيين، إلى أن استردوا الأرض المغتصبة، ومن قبل أن يبدأ العدوان الصهيوني على فلسطين كان العرب من كل دين يعيشون في سلام على أرض فلسطين.

أن مشكلة فلسطين مشكلة أرض مغتصبة وليست مشكلة تبشير بأحد الأديان. وإذا كان الصهاينة المعتدون يخلطون القومية بالدين ويبررون العدوان بنصوص من "التوراة" فذلك ما يقوله المعتدون أنفسهم لخدمة أغراضهم أو لتبرير عدوانهم.. وعندما ننزل نحن إلى هذا الخطأ نكون قد قبلنا حجة المعتدين وشوهنا

حقيقة مشكلتنا فلا نعرف حلها الصحيح ولا نستطيع أن ندرك ابعاد الصراع الحقيقية . فعندما ينسى بعض "المنقهيين" الأمة العربية التي ينتمون إليها، والواقع القومي الذي تثار فيه المشكلة ويقدمون الدين بديلا عن القومية أو عندما يفعل "المتعصبون" فيصبون جام غضبهم على أبناء أمتهم العربية من اليهود، لا يفعلون شيئا بتلك الأخطاء المضللة سوى خذلان أمتهم المعتدى عليها والانتصار للصهيونية المعتدية.

إذ عندما يصبح الدين بديلا عن القومية ثم تطرح مشكلة فلسطين ينتهي بهم الأمر إلى اقتسام الوطن العربي فيما بين الأديان الثلاثة على الأقل. وأيا ما كانت النسبة بين الأقسام فسيكون على كل مسلم أو مسيحي أن يخرج من أرض اليهود في فلسطين. أي يكون عليهم أن يقبلوا الحل الصهيوني الذي يظنون أنهم يحاربونه بالتعصب الديني فهل يقبلون ما تنتهي إليه منطلقاتهم؟

التساؤل الثاني الذي يطرح نفسه حول ما إذا كان الصراع في فلسطين هو حول النظم الاجتماعية في الأرض العربية بين الرجعيين والتقدميين.

المنطلقات القومية تتجاوز هذه الرؤية أيضا وتعتبرها مضللة ، فالصراع القائم هو حول الأرض المغتصبة ولمن تكون؟

فمن حيث الوقائع التاريخية كان كثيرون من عتاة الصهاينة ورواد الغزو الصهيوني لفلسطين من "الاشتراكيين" بينما كان المدافعون عن الأرض العربية "أقطاعيين" أو رأسماليين. وأدى ذلك إلى وقوع أكثر الناس ادعاء للفهم "العلمي" للمشكلات في خطأ فهم حقيقة مشكلة فلسطين باعتراف الاتحاد السوفيتي السابق بإسرائيل فور إعلان قيامها وانحاز الشيوعيين العرب إلى الصهيونية ضد أمتهم العربية. ولم يلبث التاريخ طويلا حتى كشف ذلك الخطأ "العلمي" إذ في مرحلة لاحقة أصبح الصهاينة الذي كانوا يوما من أعضاء "البوند الماركسي" حلفاء أوفياء للإمبريالية الأمريكية بينما أصبح المدافعون عن الأرض العربية من التقدميين والاشتراكيين وفي الحالتين تغيرت مواقف القوى من النظم الاجتماعية ولكن المشكلة ظلت مستمرة والصراع قائما.

وقد صحح كثير من الماركسيين العرب مواقفهم تصحيحاً كاملاً ولكن العبرة ليست بتصحيح المواقف انما العبرة بصحة فهم حقيقة مشكلة فلسطين. ومشكلة فلسطين مشكلة أثارها اغتصاب الأرض العربية والأرض هي مصدر الإمكانات المادية للتقدم الاجتماعي، فاغتصابها من الشعب العربي معوق لتقدمه فهو عدوان رجعي بصرف النظر عما يفعله بها وفيها المغتصبون.

فالبعض يحاول إخفاء المشكلة الأصلية تحت ستار الادعاءات التقدمية ليبرروا بقاءهم في الأرض المغتصبة. وهو تضليل لم يضلل مثله احد من قبل يوم ان نشب الصراع المسلح بين الصين والاتحاد السوفيتي حول بضعة أميال مربعة من الأرض على الحدود بين البلدين. لم يكن هناك شك في أن الاشتراكية هي نظام الحياة الذي ينتظر تلك الأرض سواء آلت إلى الصين أو إلى الاتحاد السوفيتي. لم يكن احد من الطرفين يشك في هذا ولم يثره احد من الطرفين إنما كان الصراع المسلح الذي وصل إلى حد القتال الفعلي بين الاشتراكيين من الجانبين دائرا حول لمن تكون الأرض.

إن كان هذا واضحا يتضح لنا غياب الأخطاء المضللة التي تطرح مشكلة فلسطين كما لو كانت صراعا حول ملكية أدوات الإنتاج في الأرض العربية. وهي أخطاء غيبية ومضللة حتى لو كانت تستهدف غرورا أضعاف الجبهة الداخلية في إسرائيل أو حتى شقها عبر جذب ما يسمى بقوى السلام التقدمية الإسرائيلية على أرضية الحقوق العربية ولو نسبيا لأننا نفترض أن هدفنا هو أن نضعف القوى المعادية لنمزقها انتصارا لحقنا ولكن لا ندفع من حقنا ثمن أضعافها وتمزيقها. ولا يجدينا شيئا أن يتمزق المجتمع

الصهيوني في إسرائيل إلا من حيث انه قد يسهل حل مشكلة الأرض المغتصبة منا. ولكن عندما يصبح هذا التمزيق غاية في ذاته بديلة عن الغاية الأصلية فلن يزيد عن أن يكون انتقالا لأرض فلسطين من فريق صهيوني نقول انه رجعى إلى فريق صهيوني نقول انه تقدمي.

وتكون المسألة كلها عبثا وعندما ينسى بعض المتشدقين بالتقدمية والاشتراكية والكادحين والبروليتاريا... إلى آخر هذه الكلمات الكبيرة أن كل فلاح في إسرائيل يزرع ارض فلاح عربي وان كل عامل في إسرائيل يحتل مكان عامل عربي، وان كل أسرة في إسرائيل تعيش في منزل أسرة عربية، عندما ينسون أن كل خطوة إلى الأمام في إسرائيل قد انتزعت الأقدام العربية من فوق طريق التقدم الاجتماعي..، فأن هؤلاء لا يفعلون شيئا سوى دخول معركة الصراع الاجتماعي بين الغاصبين لينتصر فريق منهم على فريق آخر .

السؤال الثالث يركز على المتغيرات الدولية وما إذا كان القضية قد تحولت بفعل معطيات الواقع الدولي إلى قضية دولية لا يمكن التعامل معها بمعزل عما يفرضه هذا الواقع من مسلمات ملزمة

الإجابة أن مشكلة فلسطين لم ولن تكن أبدا مشكلة دولية ، بمعنى أنها ليست مشكلة ثائرة فيما بين الدول وليست مشكلة ثائرة ما بين الأمة العربية من ناحية والمجتمع الدولي من ناحية أخرى ، وإذا كانت الدول تتدخل في مشكلة فلسطين انتصارا للحق العربي أو دعما للعدوان الصهيوني فان الذي يحركها هو مصالحها الخاصة ولو كان السلام العالمي هو مصلحتها الخاصة ، وإذا كنا نحن نقيم وزنا للدول ومجتمعها ومصلحتها التي تحركها كما نقيم وزنا للسلام العالمي فلأن لنا في هذا مصالح تحركنا ، ذلك لأننا لسنا منعزلين عن الدول ومجتمعها ولا نستطيع حتى لو أردنا أن نعزل أنفسنا عن الدول ومجتمعها .

فليكن السلام العالمي هو المثل الذي نضربه ، لان السلام العالمي غاية مشتركة بين البشر جميعا ، غير أن الحفاظ على السلام العالمي – طبقا لنظريتنا القومية – يتحقق باحترام الوجود الخاص لكل مجتمع كما هو محدد تاريخيا بصرف النظر عن الأسلوب الذي يقتضيه الحفاظ على السلام العالمي .

كذلك نضيف أن استعمال العنف لا يعني – دائما – أن ثمة خطر يهدد السلام العالمي ، وقد يكون العنف ردا للعدوان هو الأسلوب الوحيد لحماية السلام العالمي ،، فنحن من موقفنا القومي ل نصدق ولا نفهم ادعاءات السلام التي تتستر على الانتقاص من وجودنا القومي ، ونرفض تماما أن ندفع ارض فلسطين أو أية ذرة من الأرض العربية ثمنا لتلك الادعاءات الكاذبة ، لا لأننا لا نريد السلام العالمي ولكن لأننا لا نفهم السلام العالمي إلا انه الكف عن الاعتداء واحترام الوجود الخاص لك المجتمعات البشرية .

إن الدول لن تكف عن محاولات طرح مشكلة فلسطين كما تفهمها على ضوء مصالحها الخاصة، ولن تكف عن طرحها كمسألة سلام عالمي صادقة أو مخاتلة، ولن تكف عن التدخل، علنا أو خفية من موقع التحالف معنا أو التحالف مع الصهيونية أو استغلال الطرفين معا لتحقيق ما تريد.

ولكن عندما ننزلق إلى طرح مشكلتنا أو قبول طرحها على أنها مشكلة فيما بين الدول الأخرى أو مشكلة السلام العالمي أنما ندفن مشكلة فلسطين تحت ركام الصراعات الدولية. وعندما ندفعنا تغيب عنا حقيقتها فلا نعرف كيف نحلها ثم يكون علينا أن نقبل الاحتكام إلى الدول لتحكم كل منها على ضوء مصالحها الخاصة، أو نحتكم إلى مقتضيات السلام العالمي كما يقدرها القادرون على تدميره أو الخائفون من القادرين. وينتهي الأمر بنا إلى دفع ارض فلسطين ثمنا من عندنا، لا للسلام العالمي، ولكن لتسوية جزء من حسابات المصالح القائمة بين الدول.

وعندما نعرف أن مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية ولا ننسى أنها مشكلة ارض عربية مغتصبة ، نستطيع أن نفلت من شبك التضليل الذي يثيره أدعياء العلم بالقانون الدولي عندما يزعمون أن مشكلة اغتصاب الأرض العربية في فلسطين قد حلت منذ أن اعترف المجتمع الدولي بدولة إسرائيل وقبلها عضوا في هيئة الأمم المتحدة. وأنها منذ ذلك الحين قد أصبحت مشكلة سلام بين الدول المتجاورة.

أن فقه القانون الدولي ملء بالنظريات عن الاعتراف بالدول وطبيعته المنشئة أو المقررة أو المختلطة، وبإثارة الملزمة فيما بين الدول المعترف بها والدولة أو الدول المعترفة. ولكن ليس في فقه القانون الدولي ولا في قواعده ولا في تطبيقاته ما يجعل لاعتراف دولة ثانية أثرا ملزما لدولة ثالثة لم تعترف بها. إذ أن القاعدة الأساسية التي يقوم عليها كل بناء القانون الدولي هي أن الدولة لا تلتزم إلا بإرادتها الخاصة.

فما الذي يعنيه اعتراف كثير من الدول بإسرائيل؟.. يعني أن تلك الدول قد أصبحت ملتزمة بإرادته بان تعامل إسرائيل كدولة ما دامت قائمة ولا يعنى شرعية قيام إسرائيل على الأرض العربية المغتصبة لان القرارات التي تأخذها الدول، كما يعرف كل الذين يعلمون المبادئ الأولية في القانون الدولي. غير قابلة لأحداث اثر مشروع خارج نطاق الإقليم الذي تنصب عليه سيادتها. ومادامت الدول التي اعترفت بإسرائيل ليست ذات سيادة على إقليم فلسطين فان اعترافها يضيف الشرعية على تعاملها مع إسرائيل ولكنه لا يضيف الشرعية على دولة إسرائيل ذاتها.

فلا يمكن أن يتحول الاغتصاب إلى عمل مشروع. فهذا يقع خارج نطاق مقدرة الدول وهي تمارس سيادتها، لا لاننا نريد ذلك، ولكن لان تلك هي أحكام القانون الدولي الذي يحتجون به كثيرا.

أكثر من هذا أن الاعتراف بدولة إسرائيل لا يتضمن الالتزام بالمحافظة على وجودها. وإلا لكان الاعتراف المشروع دوليا حماية غير مشروعة. ومن هنا ندرك كم هي زائفة المقولة التي يهمس بها البعض ويهددنا بها الآخرون: ما دامت الدول قد اعترفت بوجود إسرائيل فإنها لن تسمح بزوالها أبداً. فيوم ان تزول دولة إسرائيل يصبح الاعتراف السابق بوجودها غير ذي مضمون ويسقط. قد تدافع دولة أو أخرى عن وجود إسرائيل ولكن هذا لن يكون أثرا ملزما من آثار الاعتراف بها. سيكون حماية لمصالحها أيا كان مضمون تلك المصالح.

إن اعتراف كثير من الدول، أذن، بإسرائيل لم يحل مشكلة فلسطين ولكنه كان حلا لمشكلات التعامل بين تلك الدول وبين إسرائيل. وبالتالي فان المشكلة كما هي على حقيقتها ما تزال قائمة بالرغم من الاعتراف بدولة اسرائيل.

أما عن هيئة الأمم المتحدة فان مبادئها الأساسية الواردة في المواد الأولى من ميثاقها تنكر الشرعية على الاستيلاء على الأرض بالقوة وعندما قبلت هيئة الأمم المتحدة إسرائيل عضوا فيها، قبل أن تجف دماء المذابح في الأرض المغتصبة، لم يكن الأعضاء الذين قبلوا يفعلون شيئا أقل من خيانة ميثاقها. وخيانة الميثاق ليست ملزمة لمن قبلوا الميثاق. نريد أن نقول انه بحكم ميثاق هيئة الأمم ذاتها ليس لأعضائها ولو مجتمعين أن يخالفوا ميثاقها. وعندما يخالفونه تكون قراراتهم غير مشروعة طبقا للميثاق ذاته فهي ليست حجة على الدول التي قبلت أن تكون أعضاء في هيئة الأمم المتحدة على أساس الالتزام المتبادل بالميثاق. هذا كله بدون حاجة إلى إثارة ما لا بد إن يعرفه العالمون بميثاق هيئة الأمم المتحدة، من الذي وضعه، وكيف وضع، وفي أية ظروف دولية وضع، وما هي المصالح "الحقيقية" التي وضع لحمايتها.

والغريب انه بينما يتردد الزعم في أطراف الأرض جميعا بان إسرائيل وجدت لتبقى وبان مشكلة اغتصاب الأرض العربية قد حلت منذ اعتراف المجتمع الدولي بوجود إسرائيل، يعرف الصهاينة قبل

غيرهم أنها ما تزال قائمة لم تحلها اعترافات الدول فيقاتلون منذ سنة ١٩٤٨ حتى اليوم ، ويتشبثون بالأرض التي احتلوها في مواجهة كل الضغوط الدولية من اجل الاعتراف بوجودهم على ارض التي اغتصبت أولاً، من اجل فرض هذا الاعتراف بالقوة على الأمة العربية.

وهنا يثار التساؤل الرابع والهام وهو : هل تغيرت حقيقة مشكلة فلسطين فيما لو اعترفت بإسرائيل إحدى الدول العربية، او الدول العربية مجتمعة، او شعب فلسطين نفسه ممثلاً بدولة مصنوعة او بدون دولة؟

الحقيقة أن الزعم بان العدوان الصهيوني موجه ضد دولة عربية أو بضعة دول عربية، وبالتالي تكون المشكلة قائمة بين اسرائيل وبين تلك الدولة او الدول هو خطأ جسيم ، صحيح ان الصهيونية المعتدية عندما استولت على الارض العربية كانت الارض التي اغتصبتها جزءاً من اقليم (شبه) الدولة التي كانت قائمة في فلسطين تحت الانتداب البريطانى. وعندما اعتدت اسرائيل على مدار تاريخها اصطدمت بالدول العربية القائمة على الارض المعتدى عليها. هذا صحيح لان الارض التي اغتصبتها الصهيونية او احتلتها اسرائيل لم تكن ارضا خالية من البشر ومن الدول ، الأمر الذي نعترف بأنه يثير مشكلات جديدة بين اسرائيل والدولة او الدول العربية المعتدى عليها. مشكلات الاستقلال والامن وضمان الحدود. وتضاف تلك المشكلات الى قائمة المشكلات القومية على اساس ان كل مشكلة فى الامة العربية هى مشكلة قومية ، إلا أن هذا يجب الا يحيد بنا عن أصل المشكلة التي ستظل أبدا مشكلة اغتصاب الارض العربية بصرف النظر عن الدولة او الدول التي كانت قائمة، والتي قد تقوم على تلك الارض. ذلك لان الارض التي تقوم عليها الدول العربية ليست ارضا خاصة بتلك الدول او بشعوبها. فنحن نفهم قومياً ان الشعب العربى فى كل دولة حقا مشتركا بينه وبين باقى الشعب العربى خارج حدودها السياسية. ومن هنا لا نستطيع ان نفهم، من الموقف القومى، كيف يمكن ان يكون اغتصاب او احتلال اية ارض عربية هو مشكلة "خاصة" بين المعتدين وبين الدولة او الدول العربية التي تتلقى ضربات العدوان. فلا نفهم ان يكون اغتصاب الارض العربية سنة ١٩٤٨ واحتلال مزيد من الارض والمياه الاقليمية فى سنتى ١٩٥٦، ١٩٦٧ وما بينهما مشكلات اقليمية قائمة بين اسرائيل والدول العربية "المعنية" كما يقولون. وعندما لا نفهم المشكلات على هذا الوجه الزائف نرفض – من ناحية – ان تتنازل اية دولة عربية على ارض فلسطين المغتصبة سنة ١٩٤٨ فتعترف باسرائيل ولو فى مقابل استردادها للارض المحتلة فى سنة ١٩٦٧. ونرفض – من ناحية ثانية – ان تتنازل اية دولة عربية عن ذرة من الارض التي تقوم عليها لاسرائيل ولو فى مقابل استرداد ما يتبقى من ارض محتلة. ونرفض – من ناحية ثالثة – ان تكون مسؤولية تحرير الارض المحتلة والارض المغتصبة واقعة على عاتق جزء من الشعب العربى دون الشعب العربى كله من المحيط الى الخليج. كما نرفض ان تساوم بعض الدول العربية على جزء من الوطن العربى لتسترد جزءاً منه، نرفض ان يهرب جزء من الشعب العربى من المعركة ليتحمل جزء منه مسؤولية الامة العربية كلها.

مشكلة فلسطين اذن مشكلة قومية وليست مشكلة اقليمية.

اذا كان الصهاينة وحلفاؤهم يزعمون ولا يكفون عن ترديد مزاعمهم بان مشكلة فلسطين هى مشكلة حدود امانة واعتراف متبادل بين اسرائيل وجاراتها من الدول العربية فذلك ما يقوله المعتدون وحلفاؤهم ليكسبوا به جولة الصراع حول وجود اسرائيل وليبدأوا بعده مراحل بناء دولة الصهاينة، حرباً حرباً، ما بين الفرات والنيل وعندما ننزلق نحن فننسى ان مشكلة فلسطين هى مشكلة اغتصاب ارض فلسطين (أليس هذا بدهياً؟...) ونطرحها كما لو كانت مشكلة توسع على حساب دولة أو اكثر من الدول العربية نكون قد سلمنا للصهيونية بما اغتصبت من الارض العربية قبل سنة ١٩٦٧. وعندما ينسى الاقليميون الامة العربى التي ينتمون اليها والواقع القومى الذى تثور فيه المشكلة ويرددون كالببغاوات العجماء ان لكل دولة "عربية" شعبها الخاص وأرضها الخاصة وتاريخها الخاص ومصيرها الخاص... ويناقصون القومية بالاقليمية، يناقصون الكل بالجزء، يناقصون الشامل بالمحدود، يناقصون العام بالخاص، فيفتعلون

بكل هذا تناقضات غير قائمة، انما يخفون التناقض الحقيقي القائم بين الشعب العربي والوجود الاسرائيلي وينتصرون فيه للصهيونية وحلفائها بترديد دعاوهم الزائفة. اذ عندما ينحرفون الى المواقع الاقليمية ويزعمون ان لكل دولة عربية وجودا ومصيرا خاصا مستقلا يواجهون بان الاستقلال علاقة ذات طرفين. استقلال بالنفس عن الغير. والغير هنا هو شعب فلسطين واراضه المغتصبة. ويصبح تدخلهم في مشكلة فلسطين تجاوزا لاستقلالهم واعتداء، او تطفلا، على استقلال الاخرين يستحق الردع او يستحق السخرية، ويسخر العالم كله فعلا من الذين يدعون انهم مستقلون بوجودهم ومصيرهم عن فلسطين ثم لا يتركون فلسطين لمصيرها.

هذا الأمر يثير رغم كافة مشاعر الاحترام والدعم للقوى المقاومة وطنية وإسلامية في فلسطين ، إلا أن الموقف القومي يرفض الزعم بان مشكلة فلسطين هي مشكلة خاصة بشعب فلسطين. يقولون ان شعب فلسطين هو الذى كان يعيش على الارض المغتصبة. وهو الذى طرد منها. وهو الذى ما يزال مشردا "بدون أرض وبدون هوية" وهو الذى سيعود الى الارض عندما تسترد. فهي مشكلته الخاصة. وتلك المقولات التي نرفضها نعني أننا بالتالي نرفض قبول ما يقبله أي فصيل فلسطيني مادام ينتقص من ملكية الشعب العربي على كامل التراب العربي في فلسطين ،، فتلك الأرض نرفض الاعتراف بها ملكية خاصة للفلسطينيين ، فهي مملوكة فعليا للشعب العربي كله ولأجياله القادمة

وتبقى الكلمة الأخيرة حول الرؤية القومية لقضية فلسطين استنادا على ما نراه من مجموعة من الحقائق هي :

- منذ اكثر من نصف قرن تقوم في فلسطين محاولة لانتزاع الارض من البشر. بدأت اختلاسا خفيفا ثم تحولت الى اغتصاب بالقوة. انها ليست احتلالا لفلسطين ارضا ويشرا تسخر به القوى المحتلة كلا من الارض والبشر لخدمة التقدم في بلادها البعيدة كما كانت تفعل الانجليزى واستمرت في ظله وما تزال باقية بعده، فيها تحاول الحركة الصهيونية الاستيلاء على ارض "خالية" من الشعب العربي وتوطين بشر اخرين فيه بدلا من المطرودين. انها محاولة قريبة الشبه بما فعل المهاجرون الاوروبيون القدامى في امريكا واستراليا حيث ابادوا البشر ليقوموا على الارض الخالية مجتمعاتهم الجديدة. وفي سنة ١٩٤٨ استطاعت الحركة الصهيونية ان تقيم على ارض فلسطين دولة باسم "اسرائيل" اعترفت بها اغلبية دول العالم وقبلت عضوا في هيئة الامم المتحدة، ورفضت الدول العربية الاعتراف بها واشتبكت معها في ثلاث جولات عسكرية خلال عشرين عاما وما تزال اسرائيل باقية.

- منذ الفتح الاسلامي والشعب العربي هو الذى يقيم ويعيش على ارض فلسطين. ومن اجلها دارت اقصى معارك الدفاع عن الارض المشتركة ضد الغزو الصليبي واستردادها من الصليبيين. ومنذ ان انحسرت نهائيا موجات الغزو الصليبي لم يغادر الشعب العربي ارض فلسطين الى ان طرد بعضه من بعضها سنة ١٩٤٨. هذا تاريخ غير منكور. ولم ينظر احد حتى من الصهاينة ان الشعب العربي هو الذى كان يقيم ويعيش على ارض فلسطين منذ الفتح الاسلامي حتى سنة ١٩٤٨. وهكذا ندرك عدم جدوى كل ما كتب في محاولة اثبات ما لم ينكره احد. انما يبدأ الخلاف حول تفسير الوقائع التاريخية غير المنكورة وسنعرض فيما يلي الموقف العربي القومي ثم الموقف الصهيوني قبل ان نعرض الحل القومي للمشكلة.

- فعندما ننظر الى المجتمعات خلال تطورها الجدلى وحركتها التي لا تتوقف من الماضى الى المستقبل، نفهم ان فلسطين، ارضا وشعبا قد دخلت طوراً جديدا بالفتح الاسلامي، لم تعد منذ ذلك الحين موقعا للصراع القبلى بين الكنعانيين والاسرائيليين والرومان بل استقر الامر فيها لتتخطى مرحلة البداوة القبلية حيث لا تخص الارض شعبا بعينه لتكون جزءا مؤثرا ومتأثرا، متحركا، ومتغيرا، ومتطورا مع بقية الجماعات والشعبو التي وفر لها الفتح الاسلامي اوسع فرص التفاعل التاريخي لتكون معا امة عربية.

وإذا كانت العلاقات العرقية (السامية) بين المقيمين في فلسطين والمقيمين في بقية أنحاء الوطن العربي قد سهلت عملية التفاعل تلك فإن المهم هو ما أدى إليه التفاعل من تطور تقدمي انصهرت فيه الجماعات والشعوب السابقة على التكوين القومي واصبحت به أمة واحدة. من هنا فانا لا نطرح مشكلة فلسطين ولا نفهمها ولا نحتج فيها استنادا إلى أية وقائع تاريخية سابقة على التكوين القومي. ولا نقبل من أحد أن يطرحها أو يفهمها أن يحتج فيها بما يسبق دخول فلسطين أرضا وشعبا عنصرا من عناصر التكوين التاريخي للأمة العربية. ذلك لأننا كقوميين، والقومية تقدمية، لا نحتج ولا نقبل الاحتجاج على ثمرات التطور التاريخي بتاريخ البداوة الأولى.

فلسطين إذن جزء من الأمة العربية، وبالتالي فإن محاولة طرد الشعب العربي واغتصاب الأرض العربية لتوطين بشر مستوردين هو اعتداء على الوجود القومي للأمة العربية لأبد من أن يرد. هو انتقاص من مجتمه العربي لأبد من أن يستكمل. هو فسخ لعلاقة تاريخية بين الشعب والأرض لأبد من أن يزول ليعود الشعب إلى الأرض وتعود الأرض إلى الشعب فتبقى الأمة العربية "كما هي" لا أكثر. كل هذا بصرف النظر عن جنيس أو ديانة أو لون أو مبادئ أو نوايا المعتدين.